# مصابيح الهدى في تاريخ الأمة

## تقديم لكتاب
## روائع من سير العظماء

الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي
أستاذ الفقه الإسلامي والدراسات العليا

الحمد لله الذي خلق الناس، وفضّل بعضهم على بعض، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، وأفاض عليهم العقل والحكمة، والنور والرشاد، ليكونوا مصابيح الهدى، وكواكب الحياة.

والصلاة والسلام على رسول الله، إمام المتقين، وقائد الغرّ الميامين، والهادي إلى الصراط المستقيم، والمربي المعلم الذي قال: «**إنما بُعثت معلماً**»، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو معجزة الله الخالدة الدالّة على أنه كلام الله، وأنزله على محمد بن عبد الله لتأييده في النبوة، وتصديقه في الرسالة، وليكون نوراً وهداية إلى قيام الساعة.

وقد تعددت وجوه الإعجاز بما لا يدخل تحت الحصر، ولم يقتصر الإعجاز القرآني على الجانب البياني، والفصاحة والبلاغة، والإعجاز

العلمي، والعددي، والتشريعي، بل كان الإعجاز القرآني الدائم المشهود في المجال التربوي، وإعداد الأمة والأجيال على أفضل منهج وأقوم سبيل.

واستمرت معجزة القرآن في التربية بتخريج الأئمة، والعلماء، والمجتهدين، والفقهاء، والدعاة، والمحدثين، والمربين، والقادة، والأبطال، وأنجبت نخبة من الشوامخ في مختلف العلوم، منذ نزل القرآن، وطوال التاريخ، وحتى تقوم الساعة، ويمثلون صفوة المجتمع، ليكونوا مصابيح الهدى، والرواد إلى الخير والبر، فكانوا علماء حكماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وكما ورد في الأثر «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وطبق رسول الله ﷺ منهج القرآن الكريم الفريد في التربية، وهو المجتبى من ربه، والمصطفى على سائر خلقه، والمعلم الأول، فكانت إحدى معجزاته تربيته وتعليمه لصحابته الذين كانوا خير جيل عرفه التاريخ، وقد تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ النبوية، ومدرسة القرآن والسنة، وبرز فيهم العلماء الذين كانوا نخبة الأمة، وكواكب الهداية.

واستمرت مدرسة القرآن، ومنهجه، ومدرسة النبوة وتعاليمها، تنجب العلماء، والعظماء، وتخرّج الدعاة والأئمة، ليكونوا منارات الرشاد، والملجأ للناس في الخطوب والملمات، والموئل لهم في شؤون الحياة، والمرجع للخلفاء والأمراء، والولاة والحكام، والقادة والعامة، وكانوا قدوة في السلوك، ومثلاً أعلى في العيون، وموضع الثقة والاحترام من الجميع، بل كانوا منارات للبشرية، ويقصدهم حتى غير المسلمين.

وكان الناس يلتفون حول علمائهم، ليأخذوا منهم، ويتربوا على أيديهم، ويتأسوا بفضلهم وشمائلهم، ويرصدوا مواقفهم المشهودة، وأعمالهم الفريدة، ويتعرفوا على سيرتهم.

وقام المؤلفون في مختلف الأزمان بتدوين أخبار العلماء في كل عصر، وفاءً لهم، وتخليداً لذكراهم، ووسيلة ناجعة لمتابعتهم، والسير على خطاهم، وظهرت كتب حياة الصحابة، وكتب الطبقات، والتاريخ، والأعلام، والتراجم التي تمثل صفحة مشرقة من تاريخ الأمة الإسلامية، وتمّ إفراد كثير من العلماء بمؤلفات خاصة.

وإن الاطلاع على حياة هؤلاء العلماء من خير الوسائل التربوية للإنسان، لأنهم يمثلون التطبيق العملي للقرآن والسنة، والقيم والأخلاق، والأحكام والتعليمات، ولأنهم يقدمون الترجمة العملية في التطبيق والسلوك في مختلف الأحوال، فهم مدرسة صامتة وناطقة معاً، وهم معلمون ومربون، وهم مشاعل النور والهداية.

وإن القارىء لسيرة هؤلاء العلماء، والمطلع على أخبارهم، يتأثر بهم، ويستفيد منهم، ويتفاعل معهم، ويرتوي من مشاربهم، لذلك يحافظ الدعاة والمؤلفون على تقديم الدراسات عنهم، ونشر سيرتهم، كإحدى الوسائل المفيدة في الهداية والتربية والتهذيب.

ومن ذلك ما قام به ابننا النجيب، الشاب المهذب الأديب، الخطيب، صفوان وحيد شعبان من عرض جانب من حياة سلفنا الصالح، وعلمائنا النجباء، وأئمتنا البارزين، في كتابه «روائع من سير العظماء» واختار ثلة منهم من مختلف المشارب، وتحرى الأخبار الصحيحة عنهم، ورتبهم حسب القرون، ووضع العناوين الجانبية لكل منهم، ليسهل على القارئ المعرفة والتركيز، وأفرد فضائلهم، ومناقبهم، وسجل مواقفهم، واحترام الناس لهم، والثناء عليهم، وتخليد ذكراهم، وبعض مؤلفاتهم، وقام بتوثيق المعلومات من المصادر الموثوقة، واقتصر على سيرة أربعة من الصحابة،

لأن الصحابة يحتاجون إلى مصنف خاص، وهو ما قمتُ به في كتابي «قبسات من حياة الصحابة» (نشر دار القلم العربي، حلب، ٢٠١٠ م)، ثم عرض سيرة بعض الأعلام التابعين، وأئمة المذاهب الأربعة، وكبار العبّاد والعلماء، حتى وقف عند العالم الزاهد، والفقيه المحدث، والمؤرخ المدقق النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧٦هـ)، وكلهم يجمع بين العلم والعمل، والتقوى والصلاح، والسيرة الحسنة، والمواقف المشهودة، فتطيب بأخبارهم القلوب، وتبتهج النفوس، وفي ذكرى الصالحين تتنزل الرحمات، وهذا غيض من فيض، وهو أول المشروع ليكتمل في المستقبل بإذن الله تعالى، فيكتب الله تعالى الأجر للباحث، ويستفيد من ذلك أولاً، ثم يستفيد القراء، ويجدد سيرة السلف الصالح، فجزاه الله خير الجزاء، ونفع بعلمه، ووفقه للسداد والاقتداء، والعمل النافع الطيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

الشارقة ١٥/ شوال/ ١٤٣٤هـ

٢٢/ ٨/ ٢٠١٣م

## إهداء

إلى الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، إلى المعلم الأول، إلى رسول العلم والإنسانية، إلى معلم الناس الخير، إلى صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، سيدي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

إلى من كلّت أنامله ليقدم لي إشراقة سعادة، إلى من أزال الأشواك عن دربي ليصنع لي طريق العلم والمعرفة، إلى النور الذي يضيء حياتي والنبع الذي أرتوي منه حباً وحناناً، إلى من أشير إليه بالبنان وأفتخر به بين الأنام، فمهما قلت ومهما كتبت يعجز لساني عن أن يجد كلمات تعبر عما في قلبي لأوفيك حقك، فما في قلبي لك أكبر من أن أوفيه بالكتابة: والدي العزيز، أرجو من الله أن يمد في عمرك، وأن يمتعنا بحياته.

إلى من غمرتني بالحب والحنان، إلى النبع الصافي، والشجرة التي لن تذبل في قلبي، إلى الظل الذي آوي إليه في كل حين؛ فأشكو إليه همي وحزني بعد الله، حتى أنسى همومي وأحزاني، إلى مدرسة الإيمان، وبر الأمان، ووصية الرحمن، إلى رمز الوفاء، وبلسم الشفاء، والدتي الحبيبة رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه.

إلى سكن الروح، وصنو الفؤاد، إلى من عرفت معي معنى الحياة، واحترام العلم، زوجتي الغالية أم محمد.

إلى أساتذتي وشيوخي الأفاضل، علماء معهد الفتح الإسلامي خاصة،

وكل من نهلت العلم على يديه عامة، وإلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، إلى حماة الدين في كل أرض، وتحت كل سماء، إلى جميع أهلي وإخوتي وأخواتي، أهدي هذا الجهد المتواضع.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فلقد ذخر تراثنا الإسلامي بسير الرجال العظماء الذين كانت سيرهم مشرقة بالعلم والتقى، وتاريخهم مزداناً بالفضائل والمناقب، وحياتهم مليئة بالنفع والعطاء.

ذلك بأنهم أفنوا أعمارهم وضحوا بأموالهم لخدمة هذا الدين، فهجروا الأوطان، وفارقوا الأهل والخلان، ورضوا بقلةٍ من العيش، وقليل من الدنيا حتى نشروا الهدى والنور، لتكون مشاعل هداية للأمة في الدنيا، وذخراً لهم في الآخرة.

ومنذ نعومة أظفاري عشقت مطالعة سيرهم، والوقوف على أخبارهم، ولاحظت أن كثيراً منهم قد برزت في شخصيته جوانب متعددة، وتميز بمناقب مختلفة، غير أنه لم يشتهر بين الناس إلا بمنقبة واحدة أو أكثر كالفقه أو التفسير أو الحديث أو الزهد أو غير ذلك، بل إن منهم من بلغ مرتبة المجتهد المطلق كما قال علماؤنا كالطبري والأوزاعي والليث بن سعد وجعفر الصادق وغيرهم...

فاخترت كوكبة مضيئة ممن بارك الله في علمهم وعمرهم، وكان لهم الأثر الطيب في تراثنا الإسلامي ـ وما أكثرهم ـ، ثم جعلت لكل واحد منهم ترجمة مستقلة، ذكرت فيها أهم المحطات في حياته وسيرته.

ولقد دوَّن العديد من علمائنا السابقين تراجم أعلام هذه الأمة، وكان

لهم السبق والفضل، كالإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال.

والإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان.

والإمام المزي في كتابه تهذيب الكمال.

والإمام ابن عساكر في تاريخ دمشق، وغيرهم ممن كُتب في الطبقات، والتاريخ، والكتب التي تختص ببلد، أو عصر، أو شخص، أو غير ذلك، والتي تبلغ المئات سواء من السابقين أو المعاصرين، وفيها الخير الكثير، والنفع العميم.

وسلكت في هذه التراجم مسلكاً مغايراً بعض الشيء لما سطره ودونه علماؤنا، ويتجلى منهجي في النقاط التالية:

ـ كتبت بمنهجية أقرب إلى لغة العصر، فأجمع المادة العلمية وأشذِّبها، ثم أضمُّها تحت عناوين منفصلة؛ لتكون سهلة التناول، ويسيرة الأخذ للقارئ ولطالب العلم.

ـ كما أحاول تحري الأخبار الصحيحة الموثوقة، وأبتعد عن الأخبار المبالغ فيها أو الضعيفة.

ـ أبدأ في غالب التراجم بذكر المولد والنسب والبيئة، لما لها من تأثير كبير في صناعة العلماء وتكوين شخصيتهم.

ـ عرَّجت على النشأة العلمية، والهمم التي تطاول الجبال في الحرص على استثمار الوقت وتحصيل العلم، والمتاعب التي واجهتم في سفرهم وترحالهم.

ـ ذكرت طرفاً من أدبهم مع العلم والعلماء، وبيَّنت أخلاقهم مع مخالفيهم؛ ليقتدي فيهم طلبة العلم اليوم ممن أخذ التعصبُ منهم كل مأخذ

حتى حجبه عن الحق، وذكرت بعض المحن والفتن التي تعرضوا لها، وصمدوا أمامها، ووقفوا في وجهها.

ـ أشرت إلى الملامح الشخصية لكل علم من الأعلام: فبيَّنت مناقبه، وأخلاقه، وفضائله، وكيف جمعوا بين تكامل العلم والعمل، وتطابق القول والسلوك.

ـ ذكرت ثناء العلماء عليهم، وما قيل فيهم، ومن كان في حياته جوانب مغمورة متعددة، أتيت عليها وأظهرتها.

ـ استرسلت قليلاً مع بعض الشخصيات والأعلام التي أخذت مكانة سامية في صدر الرسالة الإسلامية، وكان لها فضل السبق في الإسلام ونشره، ثم تطاولت عليها الألسنة بقالة السوء، فبيَّنت فضلها، ومكانتها بالأدلة الصحيحة الصريحة.

ـ وقفت بعض الوقفات مع الذخائر العلمية النفيسة التي ورَّثوها لنا، والتي كانت وما تزال تحتل الصدارة في المكتبة الإسلامية إلى يومنا هذا: كصحيح البخاري، وموطأ مالك، وكتب الإمام الطبري، والنووي، ومؤلفات ابن الجوزي وغيرهم من الأعلام، وما قال فيها العلماء.

ـ اعتمدت في تراجم هذه الشخصيات على المراجع الموثوقة الصحيحة، إن كان الخبر يتعلق بالشخصية ذاتها مدحاً أو قدحاً، أو بمنهجها: ككتب الذهبي وابن حجر وغيرهما.

كذلك اعتمدت فيها على المراجع التاريخية الثابتة.

ـ أغلب من شملتهم الترجمة كانوا من التابعين ومن بعدهم، إلا بعض الشخصيات من الصحابة: كعائشة بنت أبي بكر الصديق، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عباس، والحسن بن علي، رضي الله عنهم أجمعين،

وكنت قد ترجمت لبعض الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم، إلا أنني أرجأت نشرها إلى الأعداد القادمة إن كتب الله في العمر بقية.

ـ رتبت الأعلام حسب التسلسل الزمني في الوفاة، وقدمت من تقدمت به الوفاة، بحسب ما وقفت عليه.

وكان الهدف من هذه التراجم الوقوف على بعض الأخبار لأئمتنا وعلمائنا وسلفنا:

**أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع**

فحينما نكتب في سير عظمائنا، نستشعر ضرورة عودة أجيالنا اليوم إلى مناهجهم، وتلمس خطواتهم، وتتبع مسالكهم، والوقوف عند أسباب تألقهم وعزهم، والتأمل ملياً في مفاصل حياتهم منذ طفولتهم حتى مماتهم.

فما أحوجنا اليوم ونحن نعيش أزمة تشرذم في الهوية، وتشتت في التراث، واختلال في موازين الحياة، أن نعود إلى أولئك الذين ضبطوا إيقاع الحياة، ونشروا منظومات القيم، وترجموا القول إلى عمل، والعمل إلى إتقان وإخلاص.

ولقد جمعت أخبارهم، ودونت سيرهم بأسلوب ميسر بسيط، في عقد فريد، وثوب قشيب؛ لتكون مادة علمية، سهلة الأخذ، يسيرة التناول لطلاب العلم والدعاة، ولمن أراد أن يتعرف على عَلَم من هذه الأعلام، فلم تكن بالطويلة المملة، ولا بالقصيرة المخلة، بل كانت بين ذلك، فلعلها تسرُّ القارئين، وتعجب الناظرين، ويؤخذ منها العبر والعظات، ويستضيء بها طلاب العلم، وتكون لهم قدوة وأسوة في طريقهم ودربهم.

فما كان من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والمنة، وما كان من

زللٍ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله عنه، واللهَ أسأل أن يجعل عملي خالصاً له، وأن ينفع به، وأن يجعله ذُخراً لي يوم الدين، إنه نعم المولى ونعم النصير.